الساعة الصماء

للاستاذ محمود محمد عماره

المدرس بمعهد دسوق الديني

فى فترة من فترات الضعف البشرى عندما يغفو الرقيب فى كيان الانسان فتأخذ العقل سنة من النوم ..، فيستمرىء لذة الكرى ..

فى هذه اللحظة قد تنحل عقدة الإرادة .. ويتداعى بناؤها .

فتنطلق الشهوة عارمة .. وتندفع الغريزة قاصمة .

ثم يلتقى الإنسان بالشيطان فى جولة . معصوب العين لايدرى إلى أين المساق !

حتى إذا فاق من غفوته .. فتح عينيه ليرى دماء الفضيلة مبعثرة هنا وهناك ..

وربما يجد فى الخطيئة لذة زينها له شيطانه . لم يحس بمثلها وهو يمارس الفضيلة . وبين دعوة الدنيا . ووقدة الحواس .. يعود مرة .. ومرة .. إلى أن يصبح العصيان عنده عادة . والعادة طبيعة ثانية !

ومن ثم . يمضى مع الشيطان فى رحلة بعيدة المدى . . لايلوى زمامه صيحة نذير . . أو تجربة خبير ..

وتمر الأيام تترى . . فيبلى من نسيج الفضيلة بقدرها .

وفى هزة من هزات الحياة . . قد يصحو الضمير . ويتحول همسه الخافت إلى رعد قاصف .

فتسرى العافية بين أعطاف العقل الغافى .

ثم يفاجأ الإنسان بركام من الخطايا تنوء بحمله الجبال .

ويقف على مفترق الطرق .. كهيكل معتصر . كطيف حائر .. كروح هائم شارد .

لايجد له فى الأرض مقعدا ..

ولا . فى السماء مصعدا !

ثم يتطلع إلى السماء . . يتناوشه الأمل والخوف . . اليأس والرجاء . تدوى فى كيانه هذه الهتافات :

هل تقبل السماء توبة رجل غاب تحت ركام من الخطايا ؟ !

هل تخترق الضراعة الحارة حجب السماء . . فتتنزل على القلب الطلوع بوارق الأمـــل . . يتفتح معها للحياة ؟

لقد عبدتك يارب سنين عددا . . ثم انتزعتنى الشهوات من بين أحضان الفضيلة انتزاعا . .

فانعكست الآية :

إذ عبدتك صغيرا . . وعصيتك كبيرا . .

عصيت هوى نفسى صغيرا وعندما رمانى زمانى بالمشيب وبالكبر أطعت الهوى عكس القضية ليتنى ولدت كبيرا ثم عدت إلى الصغر

يارب : عبدك ببابك . . ذهبت أيامه . . وبقيت آثامه . . وانقطعت شهواته وبدت تباعاته . .

فارض عنه . . فإن لم ترض عنه فاعف عنه . . . كم تحببت إلى يارب بالنعم . . مع غناك عنى : وكم تبغضت إليك بالمعاصى . مع فقرى إليك . . .

يامن إذا وعد وفى : وإذا أوعد عفا : أدخل كبير جرمى فى عظيم عفوك يا أرحم الراحمين »

ولكن ضراعات التائبين ليس بينها وبين الله حجاب :

والمدد الوافد سرعان ما يهبط على هذا القلب المحترق : من فوق سبع سماوات :

فإذا البكاء هناء : وإذا الاشراق مكان الاحتراق ! !

وقبل أن تنقلص ظلال الأمل فى خيال هذا الإنسان ، يملأ الله روعه بهذه البشرى :

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا »

وينتفض القلـــب المجروح : كعصفور بلله القطر : أوزهرة باكرها الندى !

وهنا يلمح فى وجداننا المعنى الحقيقى للآية الكريمة :

فليست هى التوبة فى أيدى

الجماهير : ترتكب باسمها الجرائم :
وليست هى مادة فى القانون قد تخضع للأهواء والمطامع .
وليست الآية شجرة وارفة الظل فى طريق عالم : ينشىء ظلالها الصالح والطالح : الناسك والفاتك ! !
بيد أنها رحمة مهداة : للذين استخفهم الشيطان : وأسكرهم بخمرة الأثم زمنا :
ثم صحا فيهم الضمير : ولسعتهم حرارة الندم : فأقبلوا على ربهم يهرعون :
عندئذ تتنزل عليهم : فتسرى فى حلوقهم كالماء الزلال : والراحة الغيناء : بعد أن اشتط المزار : وطال السفر :
وبهذا : نلتقى بالثقة الكاملة فى الاسلام ومنهجه الراشد فى تربية النفوس :
فعند مايسأل الانسان نفسه :
ماذا ستكون النتيجة : لو ترك إنسان من هذا الطراز للهموم تنهش فؤاده : والندم الملح يعصر كبده ؟
واحد من اثنين :
إما أن ينطلق ريحا عاصفا : يقتلع أشجار الفضيلة ويدور ثمارها :
لا يؤمن بعرف : ولا يخضع لقانون :
وإما أن يستسلم لليأس القانط : فيموت كمدا !
وكلا الأمرين : أحلاهما مر ! !
يقول أحد العلماء :
« إما عزلة قاتلة فى أطواء ندم كثيف : لا تنفذ منه شعاعة أمل :
وهذا هو المسخ الذى يحيل الأنسان إلى عالم الموات :
وإما تحلل وانحلال : لا يبقى على فضيلة أو خلق !
هكذا تكون موجات اليأس دائما لا تدفع اليائسين إلا إلى هذين الطرفين المتناقضين »
ولكن الإسلام يسلك بالمذنبين طريقا قاصدا : لا ترى فيه عوجا ولا امتا : فـ « كل بنى آدم خطاؤون وخير الخطائين التوابون »
وقد تكون الأخطاء دروسا تمدنا بالخبرة : ونستلهمها : فن الحياة !
وإذا ملكاتنا تخرج من خلال هذه الخطايا : متفتحة : « كما تخرج الزهرة يانعة من بين

الأوحال ، ! !

من أجل هذه المعانى . يبسط الاسلام جناحيه : للذين أضناهم العذاب وتنكرت لهم الأيام :

يحملهم إلى عالم جديد : ينسون فى رحابه ذكريات الماضى : فتنمو فيهم الطاقة الروحية . ويملأون الدنيا من جديد عدلا وفضلا : وإلى هنا سنفتح أعيننا جيدا : لنتابع فى شوق غامر فصلا آخر فى مسرحية الإسلام الخالدة :

فالإسلام لا يكتفى بمشاعر الندم تترقرق فى حنايا القلب :

ولا يكتفيه أن ينتفض الانسان فتساقط عنه الأوزار كأوراق الخريف :

لأن هذه المشاعر الحانيه : لابد أن تتحول فى دنيا الناس إلى أعمال جسام . .

والعزم على مصاحبة الفضيلة : لابد وأن يكون أساسا وطيدا لبناء ضخم من العمل الصالح :

ومن ثم فهو ينتقل بالتائب - بعد قبول توبته - نقلة أخرى : فيوجه إليه أمره بأن يعمل ويعمل ...

بحيث لا يقف عند هذا الحد السالب : لابد من شحنة « موجبه » كى تكتمل الدائرة : فتتسكهرب النفس . . وتسعى للحياة سعيها :

إقرأ قوله سبحانه وتعالى :

« إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا : فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما »

فهنا يذكر التوبه : ثم يقفى على أثرها بالعمل الصالح : وعمل عملا صالحا : ليملأ الفراغ المتخلف عن مجانبة الرذيلة : ثم نقرأ قوله تعالى :

« إلا الذين تابوا وأصلحوا وأعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين »

واختيار لفظ : وأصلحوا : يهيب بالتائب أن يتقدم ويصلح ما أفسده .

فإذا كان قد تسبب فى خصام شخصين فليحاول أن يجمع بينهم :

وإذا اقتطع شجرة فليزرع أختها :

وإذا كان قد سرق فليرد المسروق إلى ذويه ...

وبذلك التوجيه السديد لايحن الانسان إلى المعصية مرة أخرى كما يقرر علماء النفس والتربية ..

ونحن نقف الآن خاشعين بين يدى الإمام على رضى الله عنه ليبين لنا معالم الطريق إذ يقول : « على الماضى من الذنوب الندامة : وللفرائض الإعادة . ورد المظالم واستحلال الخصوم ..

وأن تعزم على أن لاتعود . وأن تذيب نفسك فى طاعة الله تعالى كما أذبتها فى المعصية ..

وأن تذيقها مرارة الطاعات . . كما أذقتها حلاوة المعاصى »

ثم ننصت إلى الامام الغزالى وهو يرسم لنا المنهج العملى للسلوك فيقرر أن التوبة الصحيحة . أن تتوقف وتكف عن الذنب : ثم تحاول جبر ما فاتك .

فأنت إذا نفخت فى المرآة رأيت سحابة . وسحابة فوق أخرى ستصبح سوادا ، فلا يكفى أن تكف عن النفخ ، بل حاول أن تجلو الصدأ المتراكم ..

وذلك بأن تعمل حسنة مضادة للسيئة التى ارتكبتها .

فإذا كنت تشرب خمرا فتصدق بشراب حلال . وإذا اغتبت إنسانا فاستغفر له فى الحديث : وأن ترد المال إلى من أخذته منه ظلما ، وإلا فتصدق به على المحتاجين ..

والقاتل السفاك يعتق العبيد لأنه إحياء لهم ، ويكفر عن سماع الملاهى بتلاوة القرآن الكريم ومجالسة أهل العلم ،

وإلى هنا ، أكاد أسمع هاتفا يقول :

لقد أثبت أن العمل طبيعة الانسان وأنه قد يخطىء فى بعض تصرفاته .

والاسلام يدخل فى حسابه هذا الاعتبار ، وهذا إجراء حميد منه ، ولكنه بعد وقوع المعصية فعلا ، إلا أننا نريد أن نعرف مبلغ جهد الاسلام فى محاربة الجريمة حتى لاتقع .

ماهى الوسائل التى اتخذها ليجنب الانسان ويلات الوقوع فى الذنب أو ارتكاب الجريمة ؟؟

وهذا ما سنعرض له فى العدد القادم إن شاء الله .

محمود محمد عماره